تجاذبات اللغة والهوية بين الأصالة والاغتراب

د. نورالدين لبصير

جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف (الجزائر)

Résumé : Nous ne parlons pas de la crise de l'identité et de la langue de luxe intellectuellement, philosophiquement ou de controverse, il est une question sérieuse à la nature du conflit fatidique avec des adversaires de la nation ... dans cette étude, nous allons essayer de surmonter le stand sur les implications des termes qui étaient attachés à la langue et de l'identité Pour rechercher la relation entre les deux, parce qu'il est inconcevable qui a usurpé le concept d'identité Seulement dans la carte d'identité qui est appelé dans certains pays arabes par nom lui-même "carte", et dans certains «identité» Usurpé arabe comme un moyen de communiquer et une façon de penser.? Je pense que la notion de langue suggère la brillance profonde Il ne peut pas être identifié dans la communication entre l'extrémité de la languette ou un pot de langue arabe en disant qu'il idéologique, culturelle ou ils ne pensent qu'à le mécanisme de la pensée et de la créativité.

المقدمة: الحمد لله القائل في محكم قرآنه ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ البقرة: 21 ،والقائل أيضاً:﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾البقرة:120، والقائل: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾النساء:89، والقائل:﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ البقرة: 109والصلاة والسلام على النبي المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ومن اتبع هديه ليوم الدين ،أما بعد: فمازالت تواجه العديد من الدول ومنها دول العالم العربي والإسلامي مشاكل وأزمات خطيرة تهدد وحدتها الوطنية بالانهيار والاندثار،ولعل من أخطر هذه الأزمات على الإطلاق بل ربما أكثرها جدلاً أزمة الهوية، ومن هنا أصبحت الهوية المحور الرئيس للأمم والشعوب، فقد انفجرت صراعات عرقية وثقافية في شتي أنحاء العالم تبيد وتدمر وتقتلع جذوراً كانت راسخةً في كثير من الدول مثل دول اليمن وسوريا والعراق ،وقبلها البلقان والصومال ورواندا، وكمبوديا وكشمير وغيرها ...حيث عمليات الإبادة الجماعية علي أشدها وعلي نحو غير مسبوق ...

ومن هذا المنطلق لا يعد الحديث عن أزمة الهوية واللغة ترفاً فكرياً، أو جدلاً فلسفياً، بل هو أمر جاد يتعلق بطبيعة الصراع المصيري للأمة مع خصومها...

إذ سنحاول في هذه الدراسة تجاوز الوقوف على دلالات الألفاظ السطحيةَ التي ألصقت باللغة والهوية ،لنبحث عن العلاقة التي تربط بينهما، لأنّه من غير المعقول أن نختزل مفهوم الهوية سوى في البطاقةِ الشخصيَّة التي تُسمَّى في بعض البلاد العربية بالاسم نفسه "بطاقة"، وفي بعضها "هُوِيَّة"، ونختزل العربية على أنَّها وسيلة للتواصل و وسيلة للتفكير.؟ أعتقد أنَّ مفهوم اللغة يُوحي على معانٍ عميقة لا يمكن حصرها في الغاية التواصلية بين الناطقين باللسان العربي أو بالقول إنّها وعاء الفكر العقائدي والثقافي أو أنّها آلية تفكير وإبداع فحسب.

لا نشك مطلقاً في أهمية اللغة كمقوم رئيس في تشكيل الهوية، لذلك نؤكد على الترابط العضوي بينهما، إنَّ اللغة تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناؤها ويفكرون بواسطتها هي التي تنظم تجربة هذا المجتمع، وهي التي تصوغ بالتالي "عالمه" و"واقعه الحقيقي"، فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم تشكل هويته، لذلك يعتبر موضوع اللغة والهوية من الموضوعات المهمة، وتأتي أهمية البحث في مثل هذا الموضوع ما نلاحظه في ظل العولمة من التغيير الحاصل في المشهد الثقافي الإنساني، ممَّا أدى إلى انقلاب وانفلات المرجعيات، والقضاء على الخصوصيات .

ويعتبر العامل اللغوي أهم مقوم أمام سائر المقومات الأخرى التي تكون هوية الأمة، ولعل ذلك هو ما دفع بواضعي «ميثاق التنوع الثقافي» في منظمة اليونيسكو إلى التأكيد أنَّ اللغة ليست أداة للاتصال واكتساب المعرفة فحسب، بل إنَّها أيضا مظهر أساسي للهوية الثقافية ووسيلة لتعزيزها، سواء بالنسبة إلى الفرد أو إلى الجماعة.

إشكالية البحث: وتبقى قضية الهويّة واللغة من القضايا التي استحوذت على النّقاشات العلميّة واللّغوية والسّياسية وذلك بحكم الإشكالات التي تطرحها وما يمكن أن تثيره، لذلك تطمح هذه الورقة البحثية الموسومة ب(**تجاذبات اللغة والهوية بين الأصالة والاغتراب**)إلى الإجابة عن جملة من التساؤُلات الهامة: ما حدود العلاقة بين اللُّغة والهُوِيَّة؟ وهو سؤال لا شك يجرّ وراءه مجموعة من الإشكاليات التي يمكن أن أجملها في النقاط التالية :

من نحن؟ وما دور اللغة ؟ينبغي لأيّ أمة تحترم ذاتها وتحافظ على هويتها أن تجيب عن هذين السؤالين بكيفية مخالفة لما طُرح من قبلُ؛ خاصة في عالم يعج بالصراعات مع الآخر. تأتي أهمية السؤالين من أنَّ السؤال الأول يُحَدِّدُ معالم الهوية، وهي الجدار المتماسك الذي يحفظ الكينونة وتشكل نقطة الاتفاق حول تصور الذات من قِبَل أفراد الأمة، ويأتي السؤال الآخر ليحدد ما الهدف الذي تسعى إليه لغة الأمة، وما هي رسالتها؟ وفي اعتقادي عدم الإجابة عن هذين السؤالين بدقة يعني تهديم قيم المجتمعات، و انتشار فوضى فكرية تيه وضياع للأمة .

هل الهوية العربية هي أزمة مفهوم أم أزمة خطاب؟ هل طرحنا على أنفسنا في خضم تجاذبات اللغة والهوية، ماذا نفهم من دلالات هذين اللفظين؟ هل اختزلنا مفهوم اللغة في وظيفة الاتصال أو التواصل؟

هل هي هوية تختزل ماضي الأمة بموروثها الحضاري والسيادي ؟وفي ظل تجاذبات اللغة والهوية وبين غياب وعي الأنا ويقظة الآخر، تبدو الهُوِيَّة العربية الإسلامية مستهدفة، هل تتمسك بهويتنا المتوارثة التي ألفنها أم نهجرها إلى هوية مستوردة ؟ وكلاهما خطر يتهدد لأنَّه إن تمسكت بالقديم مكتفية به عاشت خارج الزمان، وإن تلبست الجديد بلا روية عاشت خارج المكان.

أهمية هذه الدراسة:

-لا شك إنَّ الاهتمام بقضية الهوية هي أولوية من الأولويات التي يجب أن يتفرغ لها المفكرون والأكاديميون والباحثون القادرون على التأصيل لها والإبداع في طرحها.

-ممَّا لا شك فيه أنّه لا تستحق أمة من الأمم وصف(الأمة)حتى تكون لها هويتها المستقلة والمتميزة عن غيرها من الأمم .

- الأمة إذا فقدت(هويتها)،فقدت معها استقلالها وتميزها، وفقدت بالتالي كل شيء.

- الأمة التي تفقد هويتها تصبح بلا محتوى فكري أو رصيد حضاري.

- لم تعد مقاربات سؤال الهوية في الدرس اللغوي ذات بعد معرفي فقط، بل أصبحت تطرح رهانات خطيرة متعلقة بتحصين الهوية واستمرارها، و هذا يعني أن مسألة الهوية أصبحت من أهم الرهانات التي ينبغي الوقوف عندها.

- الأمة التي تفقد هويتها تموت، بل تجذب إليها برابرة الأمم.

- وباعتبار اللغة لسان الجماعة، ومرآة فكرها، ومنجم عطائها، والملمح الرئيس لخصوصيتها، ولهذا فإنَّ النظام العالمي الجديد يركز في أهدافه على هدم خصوصيات الآخرين على خطين اللغة، والهوية، إذ يرى فيهما عنصرين مركزيين لأية ثقافة أو حضارة.

- إنَّ اللغة ميزانٌ دقيق ومعيارٌ أساسي في حفظ الهوية وتحديد الذات، فهي شريان الأمة، وأقنوم الحضارة، ومصدرٌ عظيمٌ من مصادر القوة، وإذا أضاعت أمة لسانها أضاعت تاريخها وحضارتها، كما تضيع حاضرها ومستقبلها.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة لإحياء هذه الأمة (الميتة)،وفي اعتقادي أنّه لا سبيل لذلك إلا بالكشف عن هوية هذه الأمة.

كما تسعى هذه الورقة البحثية لأجلاء أبعاد خصوصية هويتنا بين الأمم، لأنَّ هذه الخصوصية من شأنها مساعدة أفراد الأمة نفسياً و شعورياً من شأنه إحياء مجد الأمة التليد ، والمساهمة الفعالة في السبق الحضاري من جديد .

كما تطمح لفك رموز إشكاليات الدلالاتِ القريبةَ والبعيدة، الظاهرة والمستترة، لكلٍّ من هذين اللفظين– اللغة والهوية– ،لأنّه في اعتقادي إذا لم نستطع فعل ذلك فسنظل في صراع دائم بين ثنائية فرضت نفسها علينا في ظل العولمة الأصالة والاغتراب, القديم والجديد الخصوصية والكونية التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود والتحرر، الرجعية والتقدمية، الأنا والآخر، الداخل والخارج، المحلي والعالمي ،القديم والجديد، التراث والحداثة الشرق و الغرب، و التراث و الهوية، والممكن و الواقع ...وهكذا نظل في دوامة الصراعات دون الوصول إلى غايتنا وأهدافنا المسطرة.

وفي خضم هذه المعركة هل "اللُّغة" قادرة على المواجهة؟،وهل يصبح خطرُ الزوال أو الانحسار أو التشويه واردًا؟،فهل سيحدث الاختراق عن طريق الهُويَّة، و اللُّغة ؟ويؤدي إلى إلغاء الخصوصيات وإلغاء القِيَم، وطمس التاريخ و تشويه الحضارة، فهل ننتظر حتى يحدُثَ ذلك؟ أم أنَّنا سنتحرك لحماية الأمة، وخاصَّة أنَّ العابثين يسلكون مختلف الطُّرق منذ أكثر من قرن؟

لماذا الحديث عن اللغة والهوية:

–لأنَّ موضوع اللغة والهوية يستلزم منا طرحاً مغايراً لما طرح سابقاً، وذلك لسببين اثنين رئيسيين، أولهما: ما حصل من تغير في المشهد الثقافي الإنساني، الذي أفضى إلى انقلاب المفاهيم والمرجعيات وإلى اضطراب سلم أولوياته. والسبب الثاني: تصدر العامل اللغوي أمام سائر المقومات التي منها تتكون منظومة قيم الانتماء الحضاري.

– نتحدث عن اللغة والهوية لأنَّ التحديات التي تواجه الهوية، واللغة تفرض علينا صياغة المناعة لدى الفرد والمجتمع، وهذا هو التحدي الأكبر لهوية الأمم والشعوب في ظل العولمة لا مكان للخصوصيات فيها، وإلا أصابها الايدز اللغوي.

– لأنَّ المرامي الجديدة في سياسة العولمة التي تسود العالم اليوم، تهدف لتنميط البشر والقيم والمفاهيم وفق معاييرها الجديدة، والتي تسعى إلى صياغة هوية شمولية تفرضها في الواقع الإنساني، في إطار مزيف من التوافق القسري والإجماع المفروض بالقوة.

– إنَّ النظام العالمي اليوم يشهد اهتماما وتركيزا شديدين على مسألة اللغة والهوية، خاصة في ظل رهان العلاقات الدولية الملتهبة ،ممّا يفرض علينا وعيا بهذه المسألة.

– لأنَّ اللغة معلمٌ بارز في تحديد الهوية، وإثبات الذات.

– لأنَّ هناك انفصام لغوي وهويّاتي بين النّخب المثقفة وعموم أبناء الشّعب.

لقد ترددتُ كثيراً حول الكتابة في موضوع" تجاذبات اللغة و الهوية"، ولكني استنفرت عدة إشكاليات، جعلتني أتردد أحياناً ،وأقدم أخرى ،لأنَّه لا توجد دولة معزولة عن سؤال الهوية اليوم، لكن طريقة طرح السؤال والإجابة عنه تختلف بحسب السياق التاريخي والتطورات السياسية في كل دولة وأمة.

ليس سهلاً أن يخوض المرء في موضوع لا يعلم كيف يكون منه المخرج، لأنَّ سؤال الهوية يستدعي أسئلة فرعية، كسؤال من نحن؟

من نحن: إنَّ سؤال الهوية يجب أن يخضع لإعادة التنظير بسؤال من نحن؟ وهو يستهدف أبعد من الحشد والاستقطاب وردة الأفعال ومعرفة الصديق من العدو التي يستهدفها السياسي والإيديولوجي والاقتصادي والاجتماعي... ينبغي لأيّ أمة من الأمم تريد أن يكون له وجود أن تجيب عن سؤالين مهمين قبل التحرك بأيّ اتجاه؛ ومن باب أوْلى في حالة خوض الصراعات مع الآخرر،من نحن؟ وما دور اللغة؟ وفي اعتقادي تأتي أهمية السؤالين من أنَّ السؤال الأول: يُحَدِّدُ إطار الهوية وهي الجدار المتماسك الذي يحفظ الكينونة وتشكل نقطة الاتفاق حول تصور الذات من قِبَل أفراد الأمة، ويأتي السؤال الآخر ليحدد ما الهدف الذي تسعى إليه لغة الأمة، وما هي رسالتها؟ وغياب الإجابة عن هذين السؤالين تعني تهديم القيم، وفوضى فكرية مؤداهما التيه والضياع.

إذ أنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ يحدد موقفه من غيره، قبل أن يحدد موقفه من نفسه: من هو؟ ومن يكون ؟ وماذا يريد ؟ ومن دون هذا الحسم (للهوية) الذاتية، لا يمكن تحديد أي موقف فعال من أي قضية من قضايا المصير.

ولذلك لا بد أن نسأل أنفسنا :من نحن؟ وما هي هويتنا بالتحديد ؟.. فإذا حددنا هويتنا، انتقلنا على ضوء ذلك إلى تحديد ماذا نريد؟...ومن ثم كيف السبيل؟ وإذن فتحديد الهوية يعرفنا بأهدافنا التي نريدها، والأسلوب الذي نتوصل به إلى هذه الأهداف.

إننا لا نستهدف من سؤال من نحن تبني الخطاب الإقصائي LE DISCOURS IDENTITAIRE، و لا نريد استبدال سؤال من نحن؟ بسؤال من تكون؟ كما حاول الفيلسوف الأمريكي رورتي RICHARD RORTY الدعوة إليه، لأنَّه لا يكفي لحل مشكلة الهوية.

الهوية بين الأنا والأخر: في ظل تجاذبات الأنا والأخر هل يمكننا التمترس باللغة والهوية والخصوصية الثابتة في عالم أصبح بفضل الانفجار المعرفي العلمي متقارب الحدود متفتحا

ومتداخل العناصر والهويات، لا مكان للخصوصيات ؟،عالم السرعة كما يحلو للفيلسوف الفرنسي فيربليو أن يسميه.

إنَّ قضية الهوية قضية محورية جلبت اهتمام الأمم، لذلك الصراع اليوم هو صراع تتجاذبه الهويات من جهة واللغة من جهة ثانية ،وفي خضم هذا الصراع إذا لم ننتبه لهذه القضية سنذوب حتمًا في ثقافة غيرنا، وتتلاشى مميزاتنا الخاصة لنكون بعد ذلك ذيلًا للآخرين، لذلك أصبحت قضية ما يسمى بالآخر تشغل حيّزاً كبيراً، ونقاشا محتدما ،وجدلاً واسعاً في الطروحات الثقافية على الساحة العربية في الآونة الأخيرة ، لاسيما في مجال مواجهة الذات والأخر ونقده ،حيث توجه تهمة رئيسة الآن إلى الأنا بأنه لا يعترف بالآخر، ولا يفقه التعامل معه ،بل لا يضع قضية الآخر برمتها في الحسبان ،ويعتمد على الإقصاء والانغلاق على الذات...

وقد كثر في الفترة الأخيرة الحديث عن قضية التعددية، والتفاعل الفكري الحضاري، وإسقاط مفهوم الهوية والذاتية، وتجنب الحديث عن الغزو الفكري والثقافي، باعتبار أن كل هذه المسائل تعالج قضية الآخر وتحلها.

دور اللغة في الحفاظ على الهوية: إنَّ الإنسان، كما يذهب إلى ذلك جان فرانسوا ماركييه، كان يبحث منذ البدايات عن مرآة يمكن أن يجد فيها صورة هويته المشتتة، وقد جمعت وجرى فهمها أخيرًا، وهو يعثر على غداء بحث كهذا في اللغة، الفلسفة والآداب...[1]

اللغة إرث اجتماعي، وصاحب اللغة يملك هوية عقلية وروحية، والالتزام بالتراث والتاريخ يحفظ اللغة وإبداعاتها، لا أعرف أمة تكالبت على احتقار لغتها كالأمة العربية، وهل هناك شعب ينتقص من قدر لغته، قدر الشعب العربي؟ لقد أدركت الأمم دور اللغة في الحفاظ على هويتها انظر مثلا للتجربتين الكورية والصينية، فهذه الشعوب تحترم لغتها الأم؛ تعيد لها الاعتبار لتحافظ على هويتها وكيانها، وتكتسب احترام العالم. اليابان مثلاً، ورغم تفوّقها التقني، لم تعمل على رفع مستوى اللغة الأجنبية في بلدها، على حساب لغتها الأم؛ بل حافظت على لغتها، وأتاحت لقلة من مواطنيها إتقان اللغة الأجنبية، حتى تنقل التقدم التكنولوجي إلى اللغة اليابانية، ضمن استراتيجية مدروسة جيداً .

متى نعيد الاعتبار إلى لغتنا العربية؟ متى نكفّ عن التباهي بإجادة أولادنا أكثر من لغة أجنبية، مقابل عدم اكتراثنا بضعفهم في اللغة العربية؟ كيف يمكن زيادة كفاءة مدرِّسي اللغة العربية؟

هل نظل نتحدث عن الأزمة التي تعيشها الأمة، والتحديات التي تواجهها دون الوقوف عن

العلاج؟ وبين هذا وذاك نرى أنَّ الثورة الشاملة لا بد أنْ تأخذ في اعتبارها لغة الخطاب، فقوة اللغة في أمة ما تعني استمرارية هذه الأمة بأخذ دورها بين بقية الأمم؛ لأن غلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم كما يقول ابن خلدون.

متى نُخلِص للغتنا، ونُخَلِّصها من شعور أبنائها باحتقار الذات الطفل الأم أولاً، ثم نفتح أمام أطفالنا أبواب المعرفة الإنسانية على اتساعها؛ الأمر الذي يتيح لهم أن يبدعوا بلغتهم، ويضيفوا إلى التراث الإنساني؟

فاللغة هي السبيل القوي للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة وعلى الهوية الخاصة بكل فرد، ويورد (ر.ل.تراسك) مثالاً على أن الحفاظ على اللغة حفاظ للهوية بأن هناك سباكاً يستخدم لغة خاصة بطبقته وحين التخلي عن هذه اللغة وتناول لغة أخرى ليست من طبقته يعني هذا التخلي عن لغته وعن هويته، وكأنه يقول: "لم أعد واحداً من جماعتكم" لذا تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها.[2]

الهوية بين قانون (التوازن والاتزان) :هو القانون الراسخ في صنع الحضارات؛ فإن جمدت الأمة ضاعت، وإن أغرقت في الأخذ والتواصل ضاعت أيضاً فكما أن جمودها يعزلها ويضيع وجودها، فكذلك انبهارها بلا ثقة في تراثها، وأعني بذلك انبهارها بما لدى الآخرين، مع فقدان الثقة بما لديها . وهذا الانبهار المتهالك يسلمها إلى الذوبان والفناء.[3]

الهوية و المثاقفة: يبقى مصطلح المثاقفة من المصطلحات التي تعبر عن أوجه التبادل الثقافي (الأخذ والعطاء) بين الحضارات البشرية المتعددة. وهو اتجاه يسعى أن يكون وسطا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر والعالم بأسره.

وأمام رفض الأنا المعلن للآخر، وفي ظل إصرار الآخر على الهيمنة على الأنا تظل المثاقفة يتجاذبها كلا الاتجاهين مما يفضي إلى مصادرة المثاقفة والقضاء عليها. فهل كان لزاما أن تحكم المثاقفة قانون التوازن والاتزان وذلك لأنَّ كلا من الأنا والأخر يعطي لنفسه الحق ومن ثمة الانفراد بحق الوجود.

هل تؤدي المثاقفة إلى محو ثقافة أخرى؟ وطمس هويته؟ هل انقلبت المفاهيم فلم نعد ننطلق من الثقافة لفهم المثاقفة، بل من المثاقفة لفهم الثقافة؟ فهل المثاقفة تفاعل بين الذات والآخر؟ هل المثاقفة تقوم على تلاقح الثقافات المختلفة وهل هي قائمة على الشراكة الضمنية بين الأنا والأخر أم على الاستلاب ؟

وأمام هيمنة الآخر على ثقافة الأنا هل تحولت المثاقفة إلى أحادية الجانب؟ هل هي نزعة تسعى لإخضاع سائر الثقافات لثقافة القطب الواحد؟ هل المثاقفة بين الأنا والآخر ذات علاقة متباينة بين ثقافة متفوقة وثقافة متخلفة لا نريد للمثاقفة لدى المثقفين العرب أن تتحول إلى صورة جديدة من صور الاستعباد ولاسترقاق والتبعية والهيمنة الثقافية للنموذج الغربي وهي امتداد لما ابتلينا به إلى يومنا هذا.

ويرى حسن حنفي أنه في الهويات يتوحد العالم كله، تحت سيطرة المركز، وتصبح ثقافته هي نموذج الثقافات، وباسم المثاقفة يتم انحسار الهويات الثقافية الخاصة في الثقافة المركزية مع أن مصطلح المثاقفة سلبي ويعني القضاء على ثقافة لصالح أخرى، ثم ابتلاع الأطراف داخل ثقافة المركز، وتبرز مفاهيم جديدة؛ التفاعل الثقافي.. لتنتهي إلى أن ثقافة المركز هي الثقافة النمطية، ممثلة الثقافة العالمية.[4]

الاستعمار الثقافي وطمس الهوية: هل الحاجة ماسة اليوم إلى إحياء ثقافتنا الذاتية، وتنقية جوها وتوسيع دائرتها، فإن الاستعمار الثقافي الملحاح نجح في إعطاب شخصيتنا المعنوية، وفتنة ألوف مؤلفة من عقائدنا وعباداتنا وأخلاقنا، كما نجح في بلبلة ألسنتنا وطيِّ شرائعنا وتحقير شعائرنا ، ودفعنا في المجتمع الدولي بلا صبغة حقيقية وهوية متميّزة ،وهذا هو الانهزام التام.

يقول محمد الغزالي: "إنَّ الرجل عندنا قد ينال أعلى الإجازات العلمية في الطب أو القانون، وقد يُعيَّنُ في أعلى المناصب بأوروبا وأمريكا ، لكن صلته بدينه صفر، وعلاقته بجنسه هواء ، على حين يكون زميله اليهودي كالإعصار في خدمة الصهيونية ،وزميله النصراني أسرع من البرق في خدمة الاستعمار، فهل هذا المسلم البارد الشعور أو المرتد القلب يُجدي على أمته شيئاً؟ إنه كالجندي المرتزق بسلاحه يخدم أي مبدأ على ملء بطنه وإيثار عاجلته .." .[5]

الهوية أزمة مفهوم أم أزمة خطاب: أزمة خطابات الهوية في العالم العربي تتمثل في خلق المتجانس من اللامتجانس، واختزال المعقد في البسيط، عملية التبسيط الشديدة التي يتعرض لها مفهوم الهوية نفسه، رغم شدت تعقده وإحالته على عوالم يستحيل تصنيفها واختزالها من خلال الثبات.

حدود العلاقة بين اللُّغة والهُوِيَّة: هناك أسئلة كثيرة طرحت ،وما تزال تلوح في أذهان الباحثين حول العلاقة الجدلية المتجذرة بين اللغة والهوية، هل يصبح لزاماً علينا اليوم أن نطرح هذا السؤال نفسه ،والذي ظل يتكرر لسنوات طويلة، خاصة بعد الهزات والتطورات التي عرفتها الدول العربية على الصعيدين السياسي والاجتماعي، هل ما زالت اللغة العربية معبرةً عن الهوية وعنواناً للوجود .

كل ذلك يجرنا إلى إشكالية أعمق، وهي تلك المرتبطة بحدود العلاقة بين اللُّغة والهُوِيَّة؟

ولا يمكن الحديث عن اللغة دون الحديث عن الهوية لأنَّ اللغة تحمل هموم متكلميها وتنظم سلوكهم وتفاعلهم وتوحد انتمائهم. فقيمة اللغة إذن ليست في طبيعتها ولا تقع في أساس مكوناتها الداخلية إنما هي فكرة أو مفهوم أو صفة ميزها الناس بها وتفاهموا على الاعتراف بها واعتبارها فيها دون سواها. وهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرون بها"[6].

مفهوم اللغة: اللغة أكبر من مجرد آلية للتبليغ والتواصل، هي تجسيد و تصوير لثقافة المجموعة اللسانية و فكرها، وهي بمثابة مرآة للبنيات الفكرية و الثقافية السائدة في مجتمع معيّن. و من ثمّ فاللغة تجمع بين كونها ظاهرة اجتماعية و نتاجا للفكر و وسيلة للتواصل . فهي أيضًا قدرة تمكن من الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها، فاللغة فعلاً كوعاء للفكر والمعرفة هي أساس بناء المجتمع ومساهم بارز في تنميته، لهذا ما لبث العلماء في البحث عن الكيفيات التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع والنظر في التغيرات إلى تصيب بنية اللغة استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة مع بيان هذه الوظائف وتحديدها .وقد اجتهد علماء اللغة من أمثال: سوسير ومايبه وفندريس وفيرث وهاليداي ومالينوفسكي ويسبرسن وفلمور وهاريس وكاردنر وغيرهم على إنشاء هذا الفرع الجديد من فروع علم اللغة، إذ يطمح أصحابه إلى اكتشاف الأسس أو المعايير الاجتماعية التي تحكم السلوك اللغوي مستهدفين إعادة التفكير في المقولات والفروق التي تحكم قواعد العمل اللغوي، ومن ثم توضيح موقع اللغة في الحياة الإنسانية.

ومما شجع على نشوء العلم وتطوره قناعة تكونت لدى عدد كبير من الباحثين أن للغة استعمالات متنوعة، فهي وسيلة تعبير اجتماعي وعلمي وسياسي واقتصادي مما يحتم دراسة خصائص هذه الاستعمالات المختلفة ومعرفة أبعاد التكيف اللغوي مع مختلف الأغراض والمواقف .

ووصفها (أي اللغة) لبنيتز Leibnitz على أنها "مرآة العقل"، كما اعتبرت صلب كل نسل كما يصفها أحد الشعراء : لكل قوم لسان يعرفون به إن لم يصونوه لم يعرف لهم نسب المشكل ليس في مثل هذا الاعتراف، ولكن عندما يتم ربط اللغة بالهوية تطرح الإشكالية، خصوصًا حين يتم امتطاء المشكل لتحقيق مآرب أخرى غير تلك المعلنة.

إذ لم تكن الهوية تتحدد بالنسب بل كانت تتحدد حضاريًا بالانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية، وسياسيًا واجتماعيًا ودينيًا بالانتماء إلى إحدى الهويات الصغرى: عرقية، مذهبية، دينية طائفية.

واللغة كما يراها فيصل الحفيان هي أقدم تجليات الهوية لدى الجماعات البشرية، إذ لا شك أن تَشَكُّلَ هذه الجماعات قد ارتبط ببحثها عن وسيلة للتفاهم. وإذا كنا لا نعرف — على وجه الدقة — طبيعة هذه الوسيلة الآن –فإن المؤكد أنها مع بعض التجاوز "لغة"، وأنها هي التي مكنتها من أن تُكَوِّن مجتمعاً أحس أفراده بأن شيئاً مشتركاً يجمعه مع من يتفاهم معهم من ناحية، ويميزه أو يميزهم عن غيرهم من ناحية أخرى[7].

والمشكلة التي نعاني منها أنَّ مؤسّساتنا التّربوية وغيرها تحولت من الحرب على العربيّة التي عمّر مدة طويلة من الزمن إلى الحرب على الهويّة"، فظل الهجوم على العربية وما زال بأنّها لغة لا تصلح للعلم والمعرفة ،وهذا ما حدا بكثير من الدول العربية لتدريس العلوم باللغات الأجنبية مما منح الأسبقية للغات الأجنبية في السياسات التعليمية كل ذلك شكل تهديدا للغة العربية والهوية العربية. وهي منطلقات في اعتقادي غير مقنعة وغير علميّة وغير مبررة، كلّ ذلك أدى إلى تقوية الأنساق اللّسانية الأجنبيّة على حساب النّسق اللّغوي العربيّ ، وبالتّالي عمدت إلى إنتاج ميولات إلى الأخر بحكم الصّورة النّمطية المسبقة عن تخلّف اللّغة العربيّة عن مواكبة التقدّم والحداثة والعلوم التّطبيقية.

وفي خضم هذه الحملات الممنهجة على العربية هل نصمت وننتظر حتى يقضى عليها؟،ولهذا حدد عبد العلي الودغيري أشد الأخطار فتكاً بالعربية، ويسميها: «ثلاثي الموت»، ويقصد بها: التعددية، وازدواجية اللسان، وتفريط أهل اللغة فيها.

مفهوم الهوية: يعاني العالم العربي من أزمة خطابات، ومن بين هذه الخطابات – الهوية — الذي يتعرض بوعي أو بغير وعي لعملية اختزال مفهوم الهوية، على الرغم من شدة تعقده وإحالته على عوالم يستحيل تصنيفها. فلا يمكن بحال من الأحوال اختزال الهوية في المدلول اللغوي؟ لأنَّ تحديد مفهوم الهوية العربية و ضبطه يبقى من الأهمية بمكان، إذ إن الجهاز المفاهيمي بالمعنى الإبستيمولوجي يبقى الركيزة الأساس لأي شرعية علمية.

في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة التي تعبر عن خاصية المطابقة Identity تستعمل كلمة(هوية): مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيله، وفى المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميز عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات.

ولذلك فإذا اعتمدنا المفهوم الفلسفي لكلمة هوية، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يتميز الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميزات ومن

قيم ومقومات. مفهوم الهوية شكل ومازال شكل مأزقاً لم نستطع الإجابة عنه ،وما زلنا نبحث عنه منذ عصر ما قبل النهضة إلى الآن؟

الهوية بين الانغلاق والانفتاح: تتموقع وتتموضع أهم إشكاليات مفهوم الهوية وقد تحول إلى خطابات تمارس تأثيرها على المجتمعات. وهنا يمكن أن نميز بين: اتجاه يعتبر الهوية معطى جاهزا قائما داخل زمنية مقدسة تتحكم فيه القداسة المطلقة لا مجال للمراجعة والمساءلة أو الإضافة أو التعديل. يعتمد هذا الاتجاه على الفكرة الجاهزة التي تتّغَنّي بالهويّة والحفاظ على الخصوصية الخالدة، ونُشْدان الوحدة المنغلقة.

أما الاتجاه الثاني :فينطلق من رفض كل ما يمكن تسميته بالهوية الذاتية أو الجماعية لان هناك هوية كونية لا مجال لتشتيت الانتماء إليها.

والمشكلة التي نعاني منها ضاع مفهوم الهوية إزاء تجاذب هذين الاتجاهين ليبقى السؤال الذي ما زلنا نبحث عنه : أين يتموقع خطاب الهوية العربية؟

الحلول المقترحة:إن موضوع الهوية وكيفية الحفاظ عليها لا يحق لي الإجابة عنه وحدي،ولا أملك هذا الحق ،بل في الحقيقة هو مشروع في حاجة إلى جهود ضخمة تتكاثف فيها الجهود، ولكن لا مانع في هذه المداخلة من وضع لبنات ربما تتبعها لبنات أخري في طريق العلاج ،إذ سنحاول وضع بعض المقترحة في سبيل الحافظ على هويتنا:

الحفاظ على الهوية من الضياع يقتضي الحفاظ على اللغة العربية :هناك علاقة جدلية بين الغالب والمغلوب التي جعلت الأجنبية تطغى على مجمل الحياة في حين نلاحظ تراجع اللغة العربية التي أصبحت متهمة بقصورها، وعدم قدرتها على مواكبة العصر وعلومه، في حين أنَّ اللغة العربية كانت في ألق الحضارة الإسلامية أنموذجا للتفاعل الايجابي الخلاق بين الغالب والمغلوب.

الأفضليّة التّعليمية الممنوحة للّغات الأجنبيّة تهدّد باندثار العربيّة لغة وهويّة: هناك علاقة متينة بين لغة التّعلم ولسان الهويّة، خاصّةً وأنّ المشكل التّعليمي إن السّياسة اللّغوية المبنية على اللغات الأجنبية، تواجه مشكلتين ،مشكلة مواجهة هيمنة لغات الأمم ذات الرّيادة الحضاريّة، ،ومشكلة اللّغات الأجنبيّة ذات الحضور الحضاريّ الشّامل المهيمن في بعده التّقني والعلميّ والأكاديمي وفي التّواصل الإنسانيّ.

إعطاء للغة العربية ميزة لغة المعرفة: هناك علاقة بين اللّغة والتّعليم والهويّة لأنَّ التّعليم باعتباره جهازَ تصنيع الكفاءات ومحرّك التّنمية هناك تلاحمُ بين اللغة والهوية إلى درجة يصعب الفصل بينهما، ويتماهيان إلى درجة أنَّهما يكادان يصبحان شيئًا واحدًا.

وعلى الرغم من تباين الآراء واختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول كيفية الحفاظ على اللغة والهوية ،وما هي أولويات الأهداف والسبل الكفيلة بتحقيقه، فالخطر الأساسي الذي يهدد الهوية الثقافية هو تراجع مكانة اللغة العربية وتقلص حضورها في المحافل العلمية ،لذلك لابد في أي مشروع للنّهوض باللّغة العربية ينبغي التوجّه نحو مجتمع المعرفة .وهو الذي يعزز هويّتها.

وحسبنا سماع الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري، أمين مجمع اللغة العربية، وهو يلخص أهم المشكلات التي تعاني منها لغة الضاد من ناحية «تردي مستوى التعليم والأداء اللغوي واستخفاف المتعلمين بلغتنا الوطنية»، لنتساءل: ماذا يتبقى من الهوية الثقافية إذا كانت النخبة المتعلمة لا تحترم اللغة الوطنية؟

تعزيز مفهوم الاعتزاز باللغة: إن المشكلة الحقيقية لا تكمن في اللغة ذاتها بل في الإنسان العربي الذي يعيش مرحلة انبهارا وشعور بالنقص والضعة من انتمائه، فيمارس هذا النقص هروبا من أصالته وهويته، لأن الهوية القومية ترتبط باللغة القومية لذلك كان الاعتزاز باللغة اعتزازا بالانتماء القومي ومن يتخلى عن انتمائه القومي وعرقه وأصله فكأنه الجسد بلا روح.

ولعلي لا أجد ما أستشهد به خيرا مما قاله الأستاذ محمود تيمور: "فإذا كانت الإمبراطورية العربية قد أسدل ستارها على مسرح السياسة فهي قائمة في مظهر لغوي يربط بين من ضمت من الشعوب، ونحن نعمل بواعيتنا الظاهرة والخافية على استبقاء رباطنا الإمبراطوري في صورة اللغة العربية، كأننا بهذا الرباط نعمل على أحياء إمبراطوريتنا الزائلة، على نحو يلاءم ملابسات الحضارة، فإيماننا بالفصحى مستمد من إيماننا بتلك الإمبراطورية التي تتجمع فيها أمجادنا التليدة، وإننا بذلك الإيمان نستمسك بمقومات شخصيتنا العزيزة علينا وعلى تاريخ الإنسانية جميعا، وفي هذا الاستمساك تلتق مشاعرنا الطبيعية، لحماية أنفسنا في معترك تنازع البقاء"[8].

التخطيط اللغوي: إنّ الوضع الذي توجد فيه اللّغة العربيّة يحتّم التحوّل من السّياسة اللّغوية المبنيّة على هواجس الأمن والمصالح الخاصّة، إلى التّخطيط اللغوي الذي يوفّر حلًّا لتدبير الشّأن والتعدّد اللغويّين، ويكون ذلك وفق رؤيةٍ علميّة تستحضر إدماج اللّغة الوطنيّة وقيمتها النّوعية في التّنمية. بكيفيّة تطوير السّياسات التّربوية اللّغوية للحفاظ على اللّغة العربيّة كلغةٍ حضاريّة قادرة على التّعاطي مع محدّدات عصر الحداثة.

معرفتنا بمخاطر العولمة على الهوية: ذكر محمد عمارة في معرض حديثه عن العولمة وكيفية مواجهتها بقوله: "لابد –في مواجهة العولمة الغربية– من التمييز في بين مستويات ثلاث: فهناك (الإنسان الغربي) وهذا لا مشكلة بيننا وبينه؛ بل إن لنا في بعض دوائره الفكرية وتياراته السياسية الكثير من التفهم والمناصر والتأييد، وهناك (العلم الغربي) – وخاصة ثمرات إبداع العبقرية الغربية في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها–، وفيه تتمثّل (الحكمة) التي نحن مدعوون بمعايير الدين والدنيا إلى طلبها، والتتلمذ على أهلها، والاستلهام لحقائقها وصوابها، وهناك أخيراً (المشروع الغربي) الذي لا نعاديه إلا عندما ينفي مشروعنا العربي والإسلامي" .[9]

تعزيز مفهومي اللغة والهوية في الأجيال :وقد لاحظ المربون أولو الغيرة أن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء، أجيال فارغة لا تنطلق من مبدأ ولا تنتهي إلى غاية، يكفى أن تحركها الغرائز التي تحرك الحيران، مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همة ولا يتنصر بها جبين...وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف الهابط... وقد شكا الأخ الأستاذ أحمد موسى سالم من أن الطفولة في بلادنا مهددة بالضياع القومي، والاغتراب الوطني، والاحتواء المذهبي، أي أننا لا نعرف فضائل قومنا ولا عظمة تاريخنا ولا قيمة رسالتنا ولا جمال لغتنا وروعة بيانها، ومنذ أن يتحرك الفم نحو النطق والتعبير يبدو شبح اللغات الأجنبية، أو الألفاظ السوقية وتتعرض النفوس الغضة لغزو مشبع بالفكر الأجنبي، ولصور تنقل إلينا ملامح غيرنا، ولكتب ومجلات متخصصة فى تشويه شخصيتنا، وإبعادنا عن منابتنا، وتجهيلنا فى ديننا وتعريفنا بالسلوك الأوربي وحده!![10].

الخاتمة:

إن الأسئلة التي طرحتها هذه الورقة البحثية على نفسها ليس بالضرورة أن تجد الحلَّ الحاسِم لها غدًا، ولكنَّها تبقى نُصِرُّ على طرْحها وتدعو الباحثين لمناقَشتها مناقشة علمية هادئة بعيدة عن الارتجالية وردت الأفعال الآنية والمرحلية؛ فلا يزال السؤال مطروحاً حتى نصل إلى الإجابة المناسِبة والعلاج الشافي الذي من خلاله يمكن أن تستَرِدُّ اللغة العربية حيويَّتها، وتستردُّ الأمَّة مزيدًا من مَلامِح شخصيَّتها وهُويَّتها.

النتائج:

– الانفتاح المعقلن على الأخر وضرورة التركيز على الاستفادة من التطور العلمي والتكنولوجي وفق استراتيجية تضمن إيجابية هذا الانفتاح.

– الحرص على تعزيز الحفاظ على الهوية، وعدم ذوبان الشخصية الثقافية بإذابة ونسف الهوية الذاتية عن طريق ضرب أركانها من الداخل سبب الانهيار والاغتراب.

– إنَّ السياسات اللغوية الغربية تربطها بالبحث العلمي وتسعى بكل ما أتيت من قوة لاستعمال اللغة القومية، و لذلك تلقى كل الدعم المادي لإنجاز الأبحاث العلمية،.

– إن سؤال الهوية الآن ينبغي أن ينطلق من الإنسان لتحريره من الاستلاب والاغتراب والإكراه والعولمة..

– تربية الأجيال القادمة على منظور سليم للهوية يحصن أمننا ويجنبنا صدام الهويات حتى لا أقول صدام الحضارات.

– اللغة في النهاية اختزال للوجود بأسره.

التوصيات:

– تثمين وتشجيع الجهود التي تبذل للحفاظ على اللغة العربية.

– جعل الهدف الاستراتيجي في المرحلة القادمة الحفاظ على مكونات الهوية واللغة .

– تدعيم مكونات الهوية الوطنية وترسيخها في المناهج التعليمية.

– ضرورة الوقوف على الطرق والأساليب التي تساعدنا على الحفاظ على الهوية اللغوية والثقافية فى عصر العولمة.

هوامش البحث:

[1] مرايا الهوية: الأدب المسكون بالفلسفة ،جان فرانسوا ماركييه، ، ترجمة أ. كميل داغر، مراجعة لطيف الزيتوني، بدعم من مؤسسة الفكر العربي، دار النشر :المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2005، ص 13.

[2] أساسيات اللغة تراسك: ، ت. رانيا إبراهيم يوسف، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ع381، ط1، 2002، ص96-97، و190-191

[3] مجلة البيان، الأدب بين الأصالة والتأصيل، د . مصطفى إبراهيم حسين، عدد:"_، ص:134.

[4] ينظر المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون جامعة فيلادلفيا: العولمة والهوية، منشورات جامعة فيلادلفيا، ط1، 1999، بحث حسن حنفي: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، ص37-38.

[5] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: محمد الغزالي، دار نهضة مصر،ط.الأولي،ص:27.

[6] اللغة العربية القيمة والهوية: بسام بركة ، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002، ص 86.

[7] اللغة والهوية: إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات: فيصل الحفيان، مجلة التسامح، العدد الخامس1425هـ-2004.

[8] مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3، اللسنة الأولى 1982، ص:12.

[9] مخاطر العولمة على الهوية الثقافية: الدكتور محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة ،،ط1- 1999 ص :44.

[10] قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: محمد الغزالي، دار نهضة مصر،ط.الأولي،ص:120.